الأشكال الحيوانية في فنون العراق القديم

تعد الأعمال الفنية من عصور قبل التاريخ في العراق مصدر إثارة دائمة للأجيال المتعاقبة ، ومرد ذلك يراه الفكر المعاصر لما فيها من سمات شكلية تتفق مع العديد من النزعات الفنية السائدة في عالم اليوم ، فتارة يمتلك البعض الاندهاش للمعالجات التقنية المتقدمة التي أنجزت بها أشكالها الحيوانية وتارة أخرى تثير الاستغراب بسماتها الشكلية من تبسيط واختزال واهمال الجوانب التفصيلية وغيرها من السمات التجريدية .

إن معتقدات الإنسان الأولى في سعيه لترويض الطبيعة بالشعائر السحرية عن طريق المحاكاة والتقليد واهتمامه بفاعلية التمثيل الفني للظواهر وتواصله الروحي مع كل الظواهر المتحكمة في مفردات حياته ، وجدت لها حالة من الوعي والتشكيل الجديد ، وتأسيساً على إشكالية انعكاسات معطيات البيئة الطبيعية في بنائية الأعمال التشكيلية من عصر ما قبل الكتابة شكلت تلك المعطيات ماهية الفكر الكامنة في نسيجها البنائي ، ذلك أن الأعمال التشكيلية من هذه الحقبة تتكون من دوال شكلية ، ومن مغزى دلالي كلي ؛ هو الفهم الروحي والاجتماعي لدورها التواصلي ، هذه المدلولات الرمزية ؛ هي بمثابة تكثيف للأفكار بخطاب التشكيل وبمضامين عقلية ، فكانت تؤدي فعلها الميثولوجي بصفتها رؤى روحية ورموز ، وطالما أن الرمز ليس مستقلا قائماً بذاته ، وإنما دلالة أي رمز ؛ هي في صميمها دلالة موضوعية ، وترتبط بالكيفية التي يحل بها الروحي ، فقد كان القدماء يرسمون (الطوطم)[*] على جميع أنواع الأشياء التي يمتلكونها ، يرسمونه على مخيماتهم وكل جدران مساكنهم وكأنه شعار أو

(*) الطوطمي (Totemism) : اعتقاد منهجي بوجود اصل مشترك ، وعلاقة رابطة بين مجموعة من الناس بنوع محدد من الحيوان ، والمفهوم البدائي للطوطم هو السلف الحيواني وصورته أو رمزه ، ويستخدم هذا المصطلح في ميدان النقد للإشارة إلى تجريد رمز معين لبيان العلاقة الدلالية للدال المخصوص الذي يرد الطوطم من اجله ، ويدل على صفة قدسية ، فالحيوان الذي يحمي الجماعة وكل عضو من أعضائها هو يعمل بمثابة الرمز. (ينظر : صاحب ، زهير : تاريخ الفن في بلاد وادي الرافدين ، جامعة بغداد – كلية الفنون الجميلة ، بغداد ، ٢٠٠١ ، ص١٨) .

علامة فارقة ، فصورة الكائن ألطوطمي أكثر قدسية من الكائن ألطوطمي نفسه ، فالحيوان يشغل في الاحتفالات التعبدية منزلة أدنى .

إن فنون عصر قبل التاريخ في العراق كانت وليدة تألقها الحضاري الجديد ونقلتها الاقتصادية الكبيرة ، وفعل مجتمعها ووعي إنسانها وأفكاره الروحية ، التي ولدت على ارض العراق أول مرة ، وتلك هي عظمة الإلهام في التاريخ ، فلكل فكرة جديد مرجعيات حضارية[*] (جذور) عبر العصور ، فالحقبة الأولى كانت تمثل المرجعية التاريخية الحضارية الأقدم والتي احتوت على ادوار حضارية عديدة ، متسلسلة حسب التطور الفكري والمعرفي ، حيث شهدت المنطقة الشمالية من العراق مولد أقدم الأفكار الحضارية والتي عرفت بدور حضارة دور حسونة [**] (٥٢٠٠-٥٠٠٠ ق.م) ، وقد تميزت بقيم واشكال تعبيرية ، فجميع الأشكال كانت مثقلة بمضامين واحدة تنبثق من العرف الاجتماعي والعلاقات الذهنية والارتباط العام بمستوى الوعي والفهم والإدراك للجماعة فكان الفنان حرا في تطويع المظهر الخارجي للشكل الحيواني امعاناً منه في التعبير عما هو أكثر صدق .

فيما كانت وبفعل تنوع معطيات البيئة العراقية في مرحلة دور سامراء (٥٠٠٠-٤٥٠٠ق.م) الأمر الذي أوجد تنوعاً في الوحدات التصويرية ، ومثل هذا التنوع في المعطيات فان الوعي والقصدية قد أحالتها إلى منظومة علامية متنوعة التأويلات أيضاً ، كانت تنطلق مما هو ذاتي واجتماعي وروحي ، فهذا الوعي لابد له من عملية تركيب وليكتسب شكلا موضعياً ويتمثل بنظام شكلاني ، ولعل هذه المقولة من شأنها أن

(*) إذ قسم الباحثون الحضارة إلى حقيقتين :الأولى (حقبة ما قبل التاريخ) وهي الأدوار الحضارية السامية الممتدة (٥٣٠٠ -٣٠٠٠ ق.م) ، والثانية (حقبة ما بعد التاريخ) وهي عصر فجر السلالات السومرية ، وهو عصر اختراع الكتابة ، وبدأ عند اختراع الكتابة (٣٠٠٠ -٢٣٧٠ق.م) .

(**) دور حسونة (Hassuna Period) : أطلق (دور حسونة) على الدور الأول من ادوار العصر الحجري المعدني وسمي كذلك إلى التل المسمى (حسونة) ، حيث وجدت فيه لأول مرة الأواني الفخارية والأدوات الأخرى ، ويقع تل حسونة في ناحية (الشورة) من محافظة نينوى على بعد (٢٢) ميلاً جنوب الموصل . (ينظر : ألنجفي ، حسن : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم ، دار واسط للتوزيع والنشر ، طبع الدار العربية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٢ ، ص٩٤) .

تفسر ظهور الأسماك [***] والوعول والعقارب [*] ، في فخاريات سامراء وغيرها إذ أن فخاريات سامراء كانت غنية بالزخارف الهندسية والرسومات الآدمية والحيوانية باستعمال الخطوط الأفقية والعمودية المائلة ، وتأويلاً لذلك كان هم الفنان الوحيد تصوير اللامرئي من خلال الأسلوب التجريدي الغني بالمضامين ، فيشعر الناظر إلى الرسوم الآدمية والحيوانية ، كأنها في حركة دائرية مستمرة ، فكل شيء كان يصور بتخطيط حيوي لا يعبر إلا عن الحياة والحركة ، فنحن شاهد على سبيل المثال الأربعة غزلان ، تدور بسرعة شديدة حول شجرة ، ونشاهد على صحن آخر أربعة ضباء وهي تجري حول بركة ماء ، فالتأويل الذي تبثه هذه الدوال هي قدرة الفنان على الانتقال المعرفي والوجودي من مرحلة الشكل التصويري إلى مرحلة التجريد الكامل .

وفي نتاجات عصر سامراء بعض الإشارات للمثالية ، بمعنى إضفاء الروحية على الواقع وأن الدين سبق وصاغ بصفة فعالة الشخصية الإنسانية التي تؤكد على الإلهام ، فقد أكد (بارو) بان المثال المألوف هو الرمز الغامض فكل الرموز غنية بالمعاني ، فالمفردات الدائرية والصليب المعقوف الذي يؤلفه شعور النسوة الأربعة إنما قصد بها جلاء الرمز إلى قوة الحياة الدائمة الخفية والكامنة في كل المخلوقات الدائرية في حلقات لانهاية لها.

([***]) كانت الأسماك هي الكائنات الرمزية المهمة في حياة بلاد الرافدين وارتبطت بالمياه وعدت رمزاً للعديد من الالهه منهم (دابا) رمز السمكة أو بهيئة مركبة من هيئة بقرة بشرية وسمكة وكذلك عدت رمزاً (للإله انكي) ورمز لآلهة (نينا) وكذلك الحكماء السبعة (ابكالوا) رمزهم (رجال + اسماك) .(ينظر : سيرنج، فيليب : الرموز في ؛ الفن – الأديان – الحياة ، المصدر السابق ، ص١٦٥) .

([*]) استخدم شكل العقرب كرمز الآلهة (اشخارا) وهي ربة الزواج والولادة والتكاثر ، وكانت رموز كائنات مركبة (بهيئة بشرية +عقرب) وترمز إلى حراسة الجبل وظيفتها طرد الأرواح الشريرة ومساعدة الإنسان في بعض الأحيان ، والرجل العقرب هو نوع من الغول وبصفته تلك انه حارس لأبواب السماء في أور ، وكان المصريون يحملون تعويذات على شكل عقرب للوقاية من هذا الحيوان وبتأليهه أصبح رمز (الربة) في الإغريقية المالكة لقدرة شفائية تحمي مسلات صغيرة سحرية (لحورس) الطفلة الواقفة على تمساح وهي تمسك عقرباً في اليد اليمنى وثعابين في اليد اليسرى ، وغالبا ماكان تمثل عقرب في العهد الروماني رمزاً لإفريقيا. (ينظر: سيرنج ، فيليب : الرموز في (الفن ، الأديان ، الحياة) ، المصدر السابق ، ص١٦٧) .

وتميز فنون دور حلف (٤٥٠٠ -٤٠٠٠ق.م) بتطور ملموس ، إذ تم العثور على فخاريات متنوعة ومزينة بأشكال حيوانية وآدمية محورة تحويراً رمزياً ، ومنها مجموعة من كسر لأوان فخارية ، رسمت عليها أشكال حيوانية بأوضاع محوره تجريدية رمزية ، كالطيور والغزلان والثيران ، فنجد التحوير على طول الرقبة وفي أشكال القرون والأجنحة ، وظهرت الحركة بشكل بديع في أرجل وجسم الغزال ونلاحظ الفنان قد قام بعملية تخييل معرفي من الوصول الى المعنى الشكلي والوجداني فأولَ بمهارة العلاقات الشكلية في جسم الحيوان محوراً في أجزائه لكنه احتفظ ببعض الواقعية.

واستطاع فنان هذا الدور أن يؤول عبر عملية تخييلية ذاتية عمق ملاحظاته وأحاسيسه (المعرفية / الفنية / الجمالية) بما يحيط من مظاهر طبيعية ، وقد صور بألوان الطيور الفزعة في لحظة تهيؤها الطيران ، كرسومات الفأس ذات الرأسين ورأس الثور رمز الخصب والتكاثر ، (حيث تشكل رسوم رأس الثور في فخاريات حلف وأشكال العقارب في فخاريات سامراء تقابلاً صورياً لفكرة الطوطم) .

بمرور الوقت أضيفت الخطوط من قبل الفنان والتأكيد على مسالة التحوير والتبسيط عن طريق الاستعانة بالخيال ، فأتجهت الأشكال تدريجياً نحو التجريد ، حيث أدخلت العديد من الأشكال الهندسية والنباتية والحيوانية ، (من خلال عملية التحوير نجد أن تأويل الفنان قد ابتعد عن المحاكاة المباشرة واتجه إلى محاكاة اللامرئي من خلال الأسلوب الرمزي في اغلب نتاجاته) .

وتتألف معظم الرسوم والزخارف الفخارية في حضارة دور العبيد[*] (٤٠٠٠ -٣٥٠٠ق.م) ، من وحدات هندسية تؤلف حقولاً تحوي أحياناً

(*) حضارة العبيد : انحدرت من شمال وادي الرافدين ،جاء بها الساميون الغربيون من سورية عن طريق البادية إلى جنوب العراق وهم بطبيعة الحال عرب منبعهم الأصلي جزيرة العرب ، وكانت هي حضارة العراق الأساسية بدليل أن جميع المدن السومرية التي ازدهرت فيما بعد في عصر فجر السلالات شيدت فوق أطلال سكنى حضارة العبيد ، مما يدل على أن هنالك شعباً ذا حضارة عبيدية سبق السومريين في

على رسوم تقريبية لأشكال الطيور والحيوانات ذات القرون كالماعز والغزال والائل ، وتتآلف بعضها مع تفريعات نباتية وتشكيلات حيوانية وآدمية مختلفة ، كما عثر على تماثيل صغيرة من الفخار لإنسان طويل القامة براس يشبه راس الضفدع ولقد لونت أجزاء من جسمه يرجح إنها تمثل وشماً بارزاً.

فيما أكتشف في دور اريدو[*] (٣٥٠٠ -٣٨٠٠ق.م) أقدم مدينة في جنوب العراق معبدها المؤسس(للإله انكي)[**] بالسومرية ، فضلاً عن أكتشاف تمثال عظيم يمثل أسد ظاهر فوق سطح الأرض جالساً على عجزه وقدميه الأماميتين ، وقد اعتنى الفنان بتفاصيل رأسه وتناسب أعضاءه وهو أشبه بالأسود المصنوعة من الفخار في دور العبيد .

واشتهر دور الوركاء (٣٨٠٠-٣٢٠٠ ق.م) بالفخار الخاص به ، وظهرت لأول مرة الأختام الاسطوانية التي اختلفت عن الأختام المنبسطة الموجودة في الأدوار السابقة ، فقد كان الختم المنبسط أول ظهور له دور حلف في (الألف الخامس ق.م) اذ كانت لا تتعدى الرسوم الهندسية الساذجة أو رسم حيوان واحد فقط ، وفي دور العبيد نرى ظهور الإنسان والحيوان معاً في رسوم الختم المنبسط ثم بعد ذلك أخذت تظهر مواضيع أخرى كثيرة ومتطورة في الأدوار اللاحقة ، وكانت مواضيع هذا الدور (الوركاء) تمتاز بمشاهد وطقوس دينية تتألف من واجهة المعبد وتقديم الهدايا والقرابين ، ونشاهد رموز بعض الآلهة فضلا عن مواضيع المعارك ومشاهد الملك ومواضيع الحيوانات المفترسة التي توضح الأسد وهو

الاستيطان جنوب العراق.(ينظر: سوسة ، احمد : حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ، دار الرشيد للنشر ، وزارة الثقافة والأعلام ،العراق ، ١٩٨٠، ص٩١.

(*) اريدو : تقع جنوب غرب أور بحوالي (٤٠) كم ، غرب الناصرية ، وجد فيها نوع جديد من الفخار تحت الطبقات التي وجد فيها فخار العبيد ، إلا أن فخار أريدو الجديد أقدم زمنياً من العبيد فقد لعب دوراً بارزاً ما قبل الكتابة.

(**) الإله أنكي (Enki) :وهو الإله (آبا) بالسامية اله المعرفة والحكمة ، موطن عبادته في مدينة أريدو المدينة السومرية المقدسة ، الإله انكي هو أبو (مردوخ) اله بابل العظيم ، وقد اشتهر انكي بحبه للبشر . (ينظر: ألنجفي ، حسن : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم ، المصدر السابق ، ص٦٤) .

يهاجم الحيوانات الأليفة ، ومواضيع الحيوانات الأسطورية والمتمثلة برسوم حيوانات مركبة غالباً ما يكون لها راس أسد .

وفي دور جمدة نصر[***] (٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م) فقد استعملت الأختام بنوعيها المسطحة والاسطوانية ، وقد نقشت أواني حجرية بأشكال حيوانية من ثم طعمت بالصدف.

وفيما بعد طرأ تغير في دور مسيلم (٣٠٠٠-٢١٠٠ ق.م) على صناعة الأختام وطراز البناء وعلى فن النحت بوجه خاص والأعداد الكبيرة للمنحوتات الحجرية ، مثل منحوتة التميمة (شكل ٧) على هيئة نسر له رأس أسد وقد غطي سطحها بكتابة مسمارية ، تعطي دلالة تجريدية روحية ، بوصف أن الكتابة المسمارية عبارة عن تجريد ، اذا ما قورنت بالكتابة الهيروغليفية المصرية التي هي عبارة عن صورة ، كون التجريد هو الذي يميز فن وادي الرافدين

.

أن الإنسان الأول في حضارة قبل الكتابة في العراق قد تمكن من تصنيف الأشياء والظواهر ، وإدراك ما بينها من علاقات ، فجعل لكل قوة رمزا وعلى هذا النحو تحولت الأشياء إلى رموز ومفاهيم ، وسرعان وما وجدت لها مناخاً شاملاً وعمقاً ومضموناً انفتحت الجماعة على دور الفن لتحقيق ضرورة اجتماعية ملحة ، بتحويلها من أفكار مجردة إلى حقائق محسوسة ، تتجسد في العناصر الرمزية المستمدة من قوة الثور مثلا ، كعنصر تذكير هام بين الأشياء المحيطة بالإنسان ، وكموضوع في المشاهد التزينية [*] أن تعاظم ونمو المدركات الفكرية للإنسان والذي بدأ يستعيد نشاطه

([***]) جمدة نصر : إن أهم مميزات هذا الدور ، تقدم فن الكتابة وبدأ انتقالها من مرحلة الصور إلى رموز وعلامات ثم صارت بعد ذلك إلى مقاطع ذات قيم صوتية مؤلفة من أسافين أو خطوط اسفينية عند بصمها على ألواح الطين وهي الكتابة التي سميت بالمسمارية . (ينظر : سوسة ، احمد : حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ، المصدر السابق ، ص١١٢) .

([*]) ان مراجعة من هكذا نوع من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين قد خلقت خطاباً من التواصل الحضاري ، ذلك أن كثيراً من الموضوعات التي كانت في الماضي ذات معنى أو دلالة ، قد أصبحت تعمل ألان بمعزل عن ظروف نشأتها ، فنجد أن لكل موضوع جمالي حقيقة تاريخية تربط بعصره وتلحقه بمجتمعه ، وإبداع

الفكري من أشياء في الطبيعة ، ويكسبها مضامين اجتماعية في صيغة من التفاعل بين ظاهر الشيء وجوهره الذي يرتبط مع مغزى كلي يختفي وراءه المضمون الروحي الاجتماعي ، فالمخيلة التي وظفها سكان العراق القديم لكي يثبتوا إدراكهم بما هو مقدس ، قد زودتهم بما يتيح لهم الإجابة على الألغاز التي كانت الأمور حولهم تطرح على أفكارهم ، فقد جمعوا تأملاتهم وتأويلاتهم بالوسائل الفكرية الوحيدة التي كانت في حوزتهم من خلال تركيب صور وظروف وأحداث لايمكن السيطرة عليها وقادرة على تزويدهم بما يكفيهم ، فإزاء هذا الفهم للظواهر قامت فعاليات طقوسية ذات صيغ سحرية خاصة اعتمدت على أنواع من الأشكال الحيوانية ، وهيأة بشكل حيوان ما هو إلا امتلاء بعدد لا يحصى من الأحاسيس البشرية ، فتمثيله يوجب جمعها في شكل شأنه شأن الفكرة حيث سيقويها ويغنيها ، فالأعمال الفنية والنحتية والفخارية والحجرية والمرمرية والتي تمثل أشكالا حيوانية تتميز بأشكال واقعية وقدرة كبيرة لدى الفنان في التشكيل ومحاكاة عالية لأشكالها في الطبيعة وتجسيد صفة مشتركة بين كل من الرموز به والمرموز إليه ، فكان الفكر يعمل بآلية تهدف إلى خلق موازنة بين الإحساس الداخلي وعالم التجربة الخارجي ، حيث تكون مهمة العمل الفني إدراك مثل هذه الموازنة ، ان دراسة الملاحم والأساطير التي خلفها سكان بلاد العراق القديم تمثل (الخلاصة لكل ما فكروا به نظرياً وما جربوه عملياً ، فهي النتيجة الحاصلة من جراء تحويل النظريات الفكرية [*] إلى ممارسات فعلية) ، فالأساطير الدينية [**] المختلفة في حضارات

الفنانين الأوائل ، يخضع للتأويل أو التقدير أو الإهمال ، وفقاً لوجهة نظر الحاضر ومعاييره ، فكل جيل يحكم على جهود العصور السالفة في مضمار الفن على نحو آخر في ضوء مراميه الفنية الخاصة ، فنجد أن الفنانين في حضارة قبل التاريخ في العراق احتفظوا بعالم يقوم على الرسوم والأشكال الحيوانية الحقيقية من الطبيعة ومع ذلك فأنهم استطاعوا أيضاً أن يعطوا هذا العالم تأويلاً روحياً . (ينظر: صاحب ، زهير : فن الفخار والنحت الفخاري في العراق ؛عصور ما قبل التاريخ ، المصدر السابق ، ص١) .

(*) فمن خلال تتبع مراحل الصور الفنية وتطورها يقودنا إلى معرفة الخلفيات الفكرية لتلك الصور البصرية ، ولكي تتسنى للباحثة والملتقي تكوين رؤية واضحة عن طبيعة النتاج الفني ، وجب التعرف على البيئة التي نما فيها هذا النتاج ، لان الإنسان كما هو معروف يأخذ مادة حضارته الأساسية مما يحيط به من ظواهر وأفكار وثقافات ، وقد تحفزه في ذلك الظروف الطبيعية وتدفعه إلى العمل والإنشاء والابتكار ، فأي نشاط فني من وجهة نظر الباحثة يعد وليد عصره وبالتالي لن يكون هناك تفاعل مع العمل إلا من خلال ذلك

العراق القديم الدينية العراقية القديمة وطبيعة الفرد العراقي وتصوراته واتجاهاته الفكرية ، كما تعكس في الوقت نفسه اثر الطبيعة القاسية على تفكير الإنسان ، إذ أن مواضيع الصور والرموز الأسطورية أسهمت في تصوير الأشكال الحيوانية ، وتشمل رموزاً أحياناً (النسر برأس أسد وحية) والموازية له بالرفعة الآلهة (انانا) التي صار رمزها الغريب الشكل ، وامتزاج هذه الرموز كزينة بحد ذاته يمكن أن يقدم موضوعاً لصورة ختم وكثيراً ما تظهر القطعان والرعاة تحميها من الأسود أشكال أمثال الإنسان الثور والنسر برأس الأسد وهي أشكال معروفة في المخيلة السومرية .

العمل ، ففكرة وضع الأعمال الفنية التشكيلية في بيئتها لها أهمية كبيرة في الدراسات التحليلية في تاريخ الفن ، حيث أن فكرة التأويل لا تنظر إلى العمل الفني على انه محض تظاهر شكلي قائم بذاته لذاته بل تنظر إليه على انه تفاعل حي ما بين طبيعة الفكر الحضاري وعناصر البيئة وانعكاساتها في هيكليته ، وتكوين سمات الدلالات الحضارية التي تمنح الأشكال الحيوانية مضامينها وتحقق الاتحاد بين ما يعرف بالمدلول الداخلي والشكل الخارجي الذي تميز به ، فالتعبير المنبعث عن الفكر الحضاري والمتمثل بالإبداعات الفنية تبدأ باستثارة الانطباعات والأفكار وهي الوسيط الهام والحيوي لانتعاش المدركات الروحية .

(**) جاءت أسطورة الإله الشهير (تموز) أو(دموزي) والتي تدل بأنه كان في أصله من آلهة الرعي والنباتات والماشية وأشتهر باقترانه بآلهة الحب والحرب (عشتار) و(انانا) اسمها السومري ، حيث أن عملية صياغة الأفكار الدينية وصبها في هيئة أساطير كانت تسير ببطء حيث احتفظت كل مدينة بآلهتها الخاصة وبمجموعتها الأسطورية المتميزة . (ينظر: علي ، فاضل عبد الواحد : الأعياد والاحتفالات ؛ حضارة العراق ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٥، ص٢١٠) .